الحاضر عندما يغزوه صوت الارض الغائبة ، فهذا الرحيل المستمر مولد للامل ودافع الى العمل من اجل تجاوز البؤس . فالفلسطيني الغارق في كلية من البؤس يحلم دائما بالرجوع الى ارضه . فيختلط ويتلاحم هنا الحاضر والماضي ، فهناك زمان نفسي حقيقي (زمان صورة الوطن) ، وزمان فيزيائي (الزمان المعاش في مخيمات التشرد) . يصبح في تلاحم الزمنين هذا ، الزمان النفسي مسيطرا .

ويولد هذا الامر شيئين . أولهما استحالة الارض المفقودة الى اسطورة ، الى رسم مركباته التي تعود الى الخيال أكثر منه الى الواقع ، اي ان الخيال والحلم يعيد صياغة ورسم الوطن ، فالسهل والجبل والوادي هي بناء حلمي اكثر منه واقعي . تضحو فلسطين هنا صوتا قدسيا وفردوسا مفقودا يمد جوانحه نحو الطفل بخياله ويعيد انتاجه الشيخ الطاعن من خلال رصد لسطور ذاكرته الواهنة « في هاجرة الصيف ، وساعة القيلولة حيث حرارة الكوخ تصبح خانقة ، كان جد يوسف يجلس على عتبة البيت ، وعصاه في يده ، يرسم على الرمل صورة البيت في يافا ، ويحكي قصته الى حفيده ذي السنوات الاربع ، كما لو كان يروي قصة عفاريت مسحورة .

كان بيت يافا في البدء كوخا متواضعا ذي جدران حوارية محاطا بحديقة مزهرة تجاورها تينة . لكن خيال العجوز اصبح مطلق السراح تحت الالحاح المستمر لحفيده الذي كان يمسكه من جلبابه قائلا له « جدي ، جدي ، احكي لي عن بيت يافا » . لهذا كانت الحكاية تزداد غنى يوما وراء يوم . فتستحيل الحديقة الى حقل ، ثم الى ميدان رحيب » .

الامر الثاني مرتبط ديالكتيكيا بالاول . صورة الحديقة المسحورة تولد حوبا بربوعها ، فتصبح الرغبة في استعادة تملكها قانونا يجثم على صدر الحياة اليومية الفلسطينية . فلا يكتفي الخيال باغتصاب الارض المغتصبة بل تمور اليد باحثة عن اداة مادية ملموسة ، اي ان الخيال لا يستكين سلبيا مترهلا بل يدفع باتجاه تجسيده ماديا ، فمن رحم الخيال والمعاناة يولد المقاتل ، هنا يقدم لنا برتولينو لوحة خلابة لوجوه فلسطينية تنتمي الى المقاومة « الجبهة الديمقراطية » فهناك يوسف الشاب الصغير الذي تسري في عروقه صورة فلسطين المسحورة ، والذي ينحدر من اسرة فقيرة عرفت طعم المخيمات حتى الثمالة . واذا كان الدافع عند يوسف روحيا — اسطوريا ، فان الدافع عند ابي منصور معرفيا ، المعرفة التي تقشع غبار حقيقة الماضي مؤشرة الى طريق استعادة الماضي . وينحدر ابو منصور من اسرة ميسورة ، اكمل دراسته في بريطانيا ، حيث تعرف هناك على الفكر العلمي وعاد ليمارس هذا الفكر ، ليدافع عن قضيته العادلة التي هي جزء من نضال الشعوب . الشخصية الثالثة في « برتقال يافا » هي ابو رائد ، الانسان الذي شرب من مياه بلاده وعرف السبيل الصحيح للعودة اليه ، فهو يلتحق بالجيش المصري ويصبح ناصريا « حتى العظم » بعد حركة ١٩٥٢ ، لكن هزيمة ١٩٦٧ تزعزع ناصريته ، فيوصد باب طريقه القديم ليبحث عن درب جديد ، فيصبح مدربا عسكريا في الجبهة الديمقراطية .

أما لطيفة الشخصية الرابعة فتمثل الفتاة الفلسطينية التي كسرت طوق التقاليد السلبية ، واستعادة انسانيتها وانخرطت في تيار نضال شعبها .

يقوم برتولينو من خلال هذه الشخصيات الاربع صورة نمو المقاومة ونهوضها حتى هزيمتها « المؤقتة » في الاردن عام ١٩٧٠ . وهذه الشخصيات لا ترى كذوات فردية او انا معزولة بل هي نماذج نمطية للشعب الفلسطيني ، اي انها من خلال مسارها ونمو حياتها تعكس مسار الشعب الفلسطيني بفئاته الاجتماعية الوطنية ، كما يقدم المؤلف صورة رائعة لصيرورة الانسان الفلسطيني من خلال المعاناة والممارسة ، اي البراكسيس الذي يعيد صياغة الانسان ليجعله قادرا على المساهمة في صنع الحركة التاريخية ، وتمر اعادة الصياغة هذه خلال مراحل عدة تفضي في نهايتها الى اعادة الخلق هذه ، فهناك اولا صورة الحنين السلبي الذي يمثله الانسان الخام المراقب للواقع بعطالة كاملة ، ثم متابعة رحلة الحنين من خلال صيرورة جديدة ، فالحنين هنا يصبح ايجابيا دافعا ومحركا ، فالذات لا تكتفي بالحنين والحلم العاجز ، لكن الحلم هنا يبحث